المبحث الثاني

مكانة الفلسفة عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

إن المتأمل في ثقافة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من خلال مؤلفاته يلحظ تنوعا فريدا بين الثقافة الشرعية والثقافة الفلسفية، وإلماما بشتى العلوم التي تضمنها القرآن الكريم مثل أخبار الأمم والأنبياء وتهذيب الأخلاق وأصناف التشريع وأنواع الفلسفات.(١)

وقد سبقت الإشارة إلى أن الشيخ يعلي من مكانة الحكمة، إذ يراها أعلى ما تصل إليه العقول البشرية، ولما كانت الفلسفة تعني محبة الحكمة، تبين لنا المكانة السامية التي تحتلها الفلسفة لديه، وهو ما أشار إليه محقق كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ)؛ إذ يقول: «وللفلسفة والمنطق عند ابن عاشور مكانة وتقدير، فقد كان يدرس المنطق والحكمة، وكان كتاب النجاة للشيخ الرئيس أبي على بن سينا من جملة الكتب التي درسها بجامع الزيتونة... وهو كثيرا ما يستشهد بأقوال الفلاسفة وينوه بآرائهم، ويوظف مناهجهم في استدلالاته وتحليلاته، ويدرأ ما حاق بأنظارهم من سوء فهم وسوء تأويل».(٢)

وبناء عليه صرنا بحاجة إلى استحضار الشواهد على تلك المكانة من خلال مؤلفاته، ومنها:

أولا: كون الحكماء والفلاسفة مشاركين للأنبياء في هداية البشرية وتقدم الأمم

مما لاشك فيه أن هداية البشرية وإرشادهم؛ لإخراجهم من ظلام الجهل والشرك إلى نور العلم والإيمان، مهمة جليلة، نيطت بالأنبياء والرسل - عليهم السلام - ينضم إليهم في مهمتهم تلك - في نظر ابن عاشور - الحكماء لما لهم من مكانة سامية عند أممهم، فضلا عما يمتلكونه من حقائق، يوضح ذلك قوله: «... مرشدي الأمم من رسل وحكماء ومرشدين ناصحين».(٣)

---

(١) انظر بتصرف: د/ بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، ص٣٩.

(٢) محمد الطاهر الميساوي، مقدمة تحقيق كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، ص١٧، ط/ دار النفائس، الأردن، ط٢/ ٢٠٠١م.

(٣) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٩، ط/ دار السلام، تونس، ط١/ ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م..

ولكن ما ينبغي تأكيده أن عطف الحكماء والمرشدين على الرسل في عبارته تلك، يشير إلى حقيقة مهمة وهي أن علوم الوحي لا تصادم العلوم العقلية، بل تتعاون معها في الهداية والإرشاد.

ثانيا: استدعاؤه كلام الفلاسفة على دعوته في إصلاح التعليم

حمل الشيخ ابن عاشور على عاتقه لواء الإصلاح في كل جوانب المجتمع، لاسيما إصلاح التعليم؛ كونه من جهة يدرك أن التعليم من أصول المدنية البشرية، ومن جهة أخرى يرى أن كل إصلاح فرع عنه؛ لذلك نراه يؤكد على سمو المهمة وفضل صاحبها، طالما اتفقت في المقصد وإن اختلفت في الوسيلة مع مهمة الوحي ورسالة الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وتبرز المكانة العالية للفلسفة عنده من خلال تطوير التعليم في جامع الزيتونة إلى شعبتين، تحظى فيهما دراسة الفلسفة بموقع الصدارة خلف المواد الشرعية، وهاتان الشعبتان هما[1]:

الشعبة الأصلية: وتبنى الدراسة فيها على المواد الشرعية كالفقه والتفسير والحديث مع الأخذ بعلوم الحساب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا.

والشعبة العصرية: تلم بالعلوم الشرعية مع الأخذ الكثير بالعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والتاريخ واللغات.

كما كان استدعاؤه كلام الفلاسفة في إصلاح التعليم وغيره، مؤشرا قويا على ثقة الشيخ بتوجيهاتهم، داعيا غيره لا سيما المؤسسات العلمية والتربوية بتبني طرائقهم في الإصلاح، طالما لا تتعارض مع صحيح الدين، يظهر ذلك فيما نقله عن الفيلسوف اليوناني أفلاطون في وصف التعليم الصحيح؛ إذ يربط فيه بين اعتدال النفس وصلاح البدن، وثمرته حسن الخلق، يؤكد ذلك قوله في تعريف التعليم الصحيح: «هو موسيقى النفس ورياضة البدن وإن حسن السلوك فرع منه».[2]

فالتعليم الصحيح - إذن - كما يقول ابن عاشور: «يرمي إلى إنشاء أرقى أصناف الناس

---

(١) انظر بتصرف: د/ بلقاسم الغالي، مرجع سابق، ص٥٩-٦٠.

(٢) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص١٠.

من كل مَنْ تمرس بالأشغال والأعمال، أو رُزق المواهب الحسنة ورغب في سلوك خير السبل، وشغف بالمعرفة وامتاز بحب الواجب والتعقل».[(١)]

ثالثا: ثناؤه على أمة اليونان، ووصفهم بالزعامة في العلوم وجعلهم القدوة في ذلك

ظهر التعليم في بادئ الأمر ضيقا ضئيلا عند الجماعات الأولى من البشر، ثم تطور الأمر شيئا فشيئا بظهور الأديان السماوية التي كانت سببا في رُقيّه وتقدمه، بعدما كان يتسم بنوع من البساطة والجمود اللذين ظهر عليهما.

وقد تفاوتت جهود الأمم في الأخذ بنصيب منه، ففي فترة من فترات التاريخ تصدرت أمة اليونان المشهد مستفيدة في ذلك بما حظي به التراث الإنساني والديني لأمم الشرق القديم من فنون ومعارف وقيم أخلاقية[(٢)]، حتى غدت لها الزعامة في العلوم: النظرية منها والعملية على حد سواء، يشير الشيخ ابن عاشور إلى ذلك قائلا: «أخذ اليونان صولجان الزعامة في العلوم، فاستخلصوا من علوم القبط والهنود والكلدان أصح الحقائق، وهذبوها، ونقوها من الأوهام والأغلاط».[(٣)]

ولما كان التعليم يحتاج إلى مؤسسات تقوم على رعايته وإدارة شؤونه وشؤون طلابه، وذلك بإنشاء المدارس التي تكون منارة له، فقد رأى في النموذج اليوناني القدوة في ذلك، داعيا إلى الاقتداء به؛ فيقول: «وانقسمت المعارف اليونانية إلى شعبتين: الشعبة الأفلاطونية وأصحابها يُدعون الإشراقيين، والشعبة الأرسطاليسية وأصحابها يُدعون المشّائين، فكان لليونان من نظام التعليم والمدارس وتقاسيم العلوم، ما كان قدوة للأمم من بعدهم».[(٤)]

رابعا: أن حركة ترجمة التراث اليوناني كانت إحدى مظاهر نهضة العباسيين

على الرغم من أن البداية الحقيقية للترجمة كانت في أواخر القرن الأول الهجري بتشجيع

---

(١) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص١٠.

(٢) انظر كلا من: د/ ماجد فخري، دراسات في الفكر العربي: ص١٤- ١٥، دار النهار، بيروت، ج١/ ١٩٧٠م، أ/ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية: ص٢٤٧ - ٢٤٨، ٢٨٥، ط/ دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص١٥.

(٤) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص١٥.

من خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[١]، إلا أنها نشطت في حكم العباسيين، «ولعل الحاجة الماسة إلى الفلسفة هي التي دفعت المنصور إلى تشجيع الترجمة، فقد كان صديقا لعمرو ابن عبيد رئيس المعتزلة في وقته عظيم الاحترام له».[٢] ثم ما لبثت أن بلغت حركة ترجمة الكتب اليونانية أوج ازدهارها إبان عصر المأمون؛ إذ «أوسع المأمون خطاه في طلب العلوم الرياضية وترجمتها والفلسفة العملية والنظرية».[٣] فكان ذلك مظهرا على حضارتهم ورقيِّهم، وهو ما شهد به الشيخ ابن عاشور بقوله: «تُرجمت في هاته النهضة كتب أرسطاليس في الفلسفة».[٤] الأمر الذي دفعه إلى المطالبة باستلهام أسس تلك النهضة، من خلال الاطلاع على العلوم التي حوتها الكتب اليونانية المترجمة بصفة عامة والأرسطاليسية منها بصفة خاصة.

وإن كان لا ينسى في هذا المقام الإشارة إلى الأثر السلبي الذي خلفته حركة الترجمة من ظهور النحل والعقائد المختلفة[٥]. لكن يبقى لتلك الحركة مكانتها في الوقوف على ما لدى أمة اليونان من علوم: نظرية وعملية، استطاع علماء المسلمين الإفادة منها، فضلا عن التسلح ببراهينها المنطقية في تثبيت العقيدة في نفوس أصحابها من جانب، والدفاع عنها من مطاعن أعدائها من جانب آخر.

خامسا: ربط تمدن الأمة العربية والإسلامية بالتقدم في العلوم الدنيوية لاسيما علم الحكمة وما يتفرع عنها من علوم نظرية وعملية

بلغة ملؤها الثقة بعلوم الحكمة، وبنبرة تحمل في طياتها نوعا من المبالغة شيئا ما، ينطلق الشيخ في التصريح بأسلوب واضح لا لبس فيه، بأن تمدن الأمة العربية مرهون بالتقدم في العلوم الدنيوية لاسيما علم الحكمة وما يتفرع عنها من علوم، وأنه من الخطأ التوهُّم أن التقدم في تلك العلوم ينشأ عنه تأخر في الدين، والحال أن الواقع بالعكس كما يقول: «فإن الدين إنما تقهقر عند تأخر المسلمين في تلك العلوم، أما عند تقدمهم فقد كان له مزيد قوة وتمكن

(١) انظر: محمد بن اسحق النديم، الفهرست، المقالة السابعة، الفن الأول، ص٣٠٣.
(٢) د/ فيصل بدير عون، علم الكلام ومدارسه، ص١٩١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١/ ١٩٧٦م.
(٣) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٣٤.
(٤) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٣٥.
(٥) انظر بتصرف: ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٣٥.

كما كان في الدول البغدادية والأندلسية، وعلومهم الدنيوية والدينية لم تزل مشهورة الأخبار مشهودة الآثار».(١)

سادسا: الدعوة إلى صرف الهمة في دراسة علوم الحكمة لاسيما المنطق

مما لا شك فيه أن الشيخ كان يدرك الفارق الجوهري بين العلوم الشرعية وعلوم الحكمة(الفلسفة)؛ فالعلوم الشرعية مما يبحث عنها لذاتها، بينما علوم الحكمة مما يبحث عنها لا لذاتها بل لاستنتاج نتائج عنها، كونها أداة مساعدة وفعالة - كما يقول الشيخ -: «في إنارة العقل وتدريبه على فتح أبواب الحقائق المصفودة، والحكم الأعلى على عموم العلوم، وهاته النتيجة لا تُقرأ في الفلسفة ولكنها يعتادها الذهن في ضمن ممارساته لمغلقات المعلومات».(٢)

ومن ثم تكون من وظيفتها حفظ علوم الشريعة وصيانتها والدفاع عنها، وهو هدف من أهداف تعلُّمها وتعليمها، لا يقل في أهميته عن طلب تعلُّم العلوم الشرعية، فضلا عن كونها تحتاج إلى مجتمع يكفل نظامُه رعايتها واستمرارها.

ولذا كان الشيخ حريصا على تأكيد ذلك، عند الحديث عن تقسيم العلوم إلى قسمين تبعا لحال الإنسان في الدنيا ومآله في الآخرة، واضعا في الحسبان علو شأن ومكانة العلوم الشرعية على علوم الحكمة، على الرغم من إدراكه لحاجة الشريعة إليها، فيقول: «وقد آن هنا أن نذكر ما ينبغي صرف الهمة إليه من العلوم، فنقول: إنا معاشر المِلِّيِّين حيث إننا نتحقق أن للإنسان حياتين، لا جرم أن تُقَّسم العلوم التي نتعاطاها إلى قسمين: أحدهما وهو الأشرف ما كان متعلقا بما ينفع الحياة الدائمة: كعلم أصول الدين، والفقه، وأصوله، والتفسير، والحديث، وسائر ما يحتاج إليه في تلك العلوم: كفنون العربية، **والمقدار اللازم من المنطق**، والحساب، والهندسة والميقات. القسم الثاني: العلوم التي تنفع في الحياة الدنيا، **كعلم الحكمة**...وكذلك علم التاريخ، والجغرافيا، والطب، والحساب، والمساحة، والهندسة، والفلاحة، وسائر الصناعات».(٣)

---

(١) انظر بتصرف: ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٩٥.
(٢) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص١٥١.
(٣) انظر بتصرف: ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٩٤.

سابعا: الدعوة إلى الاستفادة من معارف غير المسلمين قياسا على ما أخذه أسلافنا من كتب اليونان

مما لاشك فيه أن ديننا الحنيف يدعو إلى ضرورة التزود بكل ما ينفع المرء في دنياه ولا يضر آخرته، دون النظر إلى أصحابه مسلمين كانوا أو غير مسلمين، فكما ورد في الحديث الشريف: (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها).(١)

وقد كان ذلك دأب فلاسفة الإسلام في طلب الحق وإن كان لدى أناس لا تربطنا بهم حدود جغرافية أو كانوا مباينين لهم في العقيدة، يوضحه قولُ الكندي: «وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتي وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغيرٌ بقائله ولا بالآتي به».(٢)

وقد نسج الشيخ على منوال الكندي في القول بأنه لا ضير في الاستفادة من علوم من سبقونا وإن كانوا غير مسلمين طالما لا تتعارض في ذلك مع أصول ديننا، يؤكده قولُه: «لا نتحرج أن نستفيد بعض تلك المعارف من كتب غير إسلامية كما أخذ أسلافنا من كتب اليونان».(٣)

ثامنا: ثناؤه على العلماء المسلمين الذين تأثروا بالتراث اليوناني واقتبسوا من طرق الفلاسفة

وهي متممة لسابقتها؛ إذ كان حريصا على بيان جهود العلماء المسلمين الذين حملوا لواء الدفاع عن العقيدة الإسلامية وتحصينها ضد مطاعن وشبهات أعدائها، متسلحين في ذلك بطرق

(١) الترمذي (محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، ت٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في فضل الفقه في العبادة، حديث رقم(٢٦٨٧)، ج٥/ ص٥١، تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرين، الناشر/ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢/ ١٩٧٥م.قال عنه الألباني: ضعيف جدا. وقال عنه أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. انظر: محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف سنن الترمذي، ص٢٧٦، مكتبة المعارف، الرياض، ط١/ ٢٠٠٠م.

(٢) الكندي، كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى(رسائل الكندي الفلسفية)القسم الأول، ص١٠٣.

(٣) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٩٧.

الاستدلال المنطقي المستمدة من المنطق الأرسطي - كما يقول -: «أمثال الباقلاني و إمام الحرمين والغزالي، وطارت سمعتهم في الآفاق فصار طلبة العلم ينتحلون طريقتهم و يتشبهون بهم، و إن هاته الحالة قد اقتبست من طريقة الفلاسفة وهذه حالة محمودة جدا».[1]

و يلاحظ في عبارة الشيخ تلك ميله وتعصبه لعلماء الأشاعرة وثناؤه عليهم، وقد فاته أن علماء المعتزلة كانوا أسبق من غيرهم في تأييد التراث اليوناني من جهة، والاستفادة منه - من جهة أخرى - في جدال خصومهم من الفرق الإسلامية، وأرباب الأديان السماوية من اليهود والنصارى، فضلا عن الدفاع عن العقيدة الإسلامية وفق أصولهم الخمسة.

(١) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٣٨، ٦٨، ٦٩.